بأن كل شيء وكل جوهر يتألف من جزأين لا ينفصلان: المادة والصورة. وليس هناك مادة صرفة أي مجردة عن الصورة وليس من صورة مجردة عن المادة سوى في حالة التجريد العقلي. فلو أخذنا الحصان الذي هو جوهر فيكون الحصان كجوهر مؤلفا من مادة التي هي جسم ومن صورة التي هي الشكل. ولو أخذنا الإنسان نجد مادته الجسد وصورته النفس أو الروح. والطاولة أيضًا وأي جوهر آخر يتكون من مادة وصورة. فنميّز بين مادة الشيء وصورته كما سنبيّن لاحقا عندما نأتي على بحث هذا التمييز عند دراسة ميتافيزيقيا أرسطو وتصنيفه للأسباب. ولكن الآن يكفي أن نعرف أن الجوهر عند أرسطو هو وحدة لا تتجزأ مؤلفة من مادة وصورة والحواس تلمس المادة بينما يجرد عقل الإنسان الصورة من المادة ليعمم تلك الصورة على كل الأفراد التي تشترك في تلك الصورة. الفرق بين أفلاطون وأرسطو واضح ومهم. فبالنسبة لأفلاطون وجود الكثرة في الأفراد هي نتيجة اشتراكها جميعًا بالمثل العقلاني الواحد، بينما هي بالنسبة لأرسطو كثرة تشترك بالصورة التي يجردها العقل من مجموعة من الأفراد ثم يعمّمها على جميع أفراد تلك الفئة.

العبارة

يبحث أرسطو في هذا الكتاب الكلمات وأنواعها وتركيبها من حروف ومعانٍ. فهناك حروف لا معنى لها إلا في جملة مثل: أحرف الجر والنصب وغيرها. وللكلمات معانٍ وبعضها لا معنى له مثل العنقاء وUnicorn (الحصان المجنّح) أو الوحيد القرن أو الخل الوفي. وقد يكون لتلك الكلمات معنى لغويٌ وقد تُستخدم في جملة مفيدة أو في سياق خيالي ولكن لا تعني شيئًا ملموسًا حقيقيًا لأنه ليس في الواقع شيء يطابق كلمة عنقاء أو حصان مجنح والخ. يميز أرسطو بين المعاني ويختار المعنى الذي هو موضوع المنطق أي المعنى الحملي حيث تجمع الجملة الحملية بين المسند والمسند إليه بشكل يكون معنى الجملة قابلًا لأن يكون إما صح

وإما خطأ. كأن نقول: السماء تمطر، الشمس مشرقة، الثلج أبيض، الدم قان، سقراط إنسان وما إلى ذلك، فهذه جمل حملية لأننا نسند فيها شيئًا أو صفة إلى جوهر ما. فقولنا سقراط إنسان، هو صح، بينما تمطر السماء هو صح ولكن ليس دائمًا قد نخطئ عندما نقول: "إنها تمطر الآن" وهي لا تمطر الآن. وهذا النوع من الجمل هي الجمل الحملية التي تكون موضوع علم المنطق.

التحليلات الأولى : أجزاء القياس والبرهان

بعد أن ميز أرسطو بين المقولات والعبارات استطاع أن يشرح معنى القياس والبرهان. فالكلمات تجمع إلى بعضها بشكل يكون إما صح أو غلط مثل "سقراط إنسان" فهي جملة صحيحة. ولكنها جملة فردية لأنها تتكلم عن سقراط وحده ويمكننا أن نؤلف جملة كلية تتحدّث عن كل فئة في جنس الإنسان مثل أن نقول: "كل إنسان فانٍ". وإذا وضعنا الجملة المفردة والجملة الكلية في ميزان منطقي أو القياس نتج ضرورة جملة ثالثة تكون نتيجة القياس. ويمكننا معرفة ما إذا كانت النتيجة صحًا أو خطأ من مجرد معرفتنا بالقياس وطرقه. والقياس يتشكل كالتالي:

1- سقراط إنسان وتسمى مقدمة صغرى

2- كل إنسان فانٍ وتسمى مقدمة كبرى

3- إذًا سقراط فانٍ وتسمى النتيجة

النتيجة توجد مضمرة في المقدمات وكل ما نفعله هو سحب أو استنتاج النتيجة من المقدمتين. فإذا كانت المقدمتان صحيحتين وجب ضرورة أن تكون النتيجة صحيحة ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون خطأ. ونقع بالتناقض فيما إذا قبلنا تلك المقدمات ورفضنا النتيجة. تمامًا كما لو قلنا "الثلج أبيض والثلج ليس أبيض" في نفس الجملة، وقانون التناقض Law of Contradiction هو القانون الأساسي الذي يبنى عليه علم المنطق.

مكتبة الفكر الجديد

وبحث أرسطو في كتاب الأغاليط الشبهات والتجاوزات المنطقية العامة التي يتم ارتكابها في التفكير وشرحها كي يتمكن الناس من الرجوع إليها وتفاديها في أحاديثهم وكتاباتهم. نذكر منها فقط اثنين: المصادرة على المطلوب Petitio Principii التي هي إثبات صحة قضية بناء على مقدمات لا تثبت إلا بها أي بافتراضها وهي قياس الدور أو إثبات القضية بناء على ذاتها أو تحصيل الحاصل وتقريع القائل بدل مواجهة حججه وتسمى ad homonym argument.

ما بعد الطبيعة

إن أشهر كتب أرسطو على الإطلاق هو كتاب ما بعد الطبيعة وأبعدها تأثيرًا في تاريخ الفلسفة. وأصبحت كلمة ميتافيزيقا Metaphysics تستخدم رديفة للفلسفة وفي بعض الأحيان للتهجّم على الفلسفة أو الابتعاد عن المنهج الفلسفي اللاعلمي واللاموضوعي. لم يستخدم أرسطو كلمة ميتافيزيقا ليصف العلم الذي تنطبق عليه، بل سماه العلم الإلهي. وقال عنه إنه أسمى العلوم وأنبلها لأنه يبحث في وجود الله، ولكنه أقلها نفعاً للإنسان. لكي يتوصل أرسطو إلى تعريف المعرفة وإعطاء تعريف دقيق للفلسفة، بحث في كتاب الميتافيزيقا عن ماهية الفلسفة وعرفها على أنها معرفة العلل الأولى أو الأسباب الأولى وتنشأ عن التعجب من وجود الكون والموجودات فيه.

يعتبر أرسطو أن الإنسان مطبوع على حب المعرفة، لأنه يتوق إلى المعرفة ويرغب فيها كما يرغب في الطعام. ولكن الرغبة في المعرفة تشمل كل شيء حتى ولو لم يكن هناك منفعة يجتنيها الإنسان منها. إن حواسّنا الخمس تقودنا إلى الاحتكاك بالأشياء أو التعرف إليها وتتولد من ذلك رغبة في معرفتها. ولكن حاسة النظر أو البصر هي أكثر الحواس اكتسابًا للمعارف لملاحظة الفوارق بين الأشياء. وبالتالي فهي أنبل الحواس وأهمها. وتتولد الذاكرة من تأثير الحواس على الإنسان. ومن الذاكرة يأتي

مكتبة الفكر الجديد

العلم والتعليم. كما تنتج الخبرة أو "التجربة" التي هي معرفة الإنسان للأشياء أو العلاقات بينها دونما سابق تصوّر أو تفكير. فالإعادة أو التكرار كفيل بالتأثير على الإنسان كي يتصرف بشكل تلقائي يقوده إلى النتيجة الصحيحة. فهو يتناول الطعام حتى الشبع، وينام عندما يتعب، ويشرب عندما يعطش، دونما ضرورة لإعمال فكره في هذه الأشياء. ويتناقل الأبناء عن الآباء تلك المعرفة كما يتناقلون أية معلومة حصلوا عليها بالتجربة. كأن تعرف الابنة عن أمها كيف تطبخ أو الابن عن أبيه ماذا يفعل لتضميد جرح أو أية أعشاب يجب أن يتناول عندما يصيبه صداع قوي وما إلى ذلك. فتلك المعرفة هي معرفة بالتجربة والتقليد ولا يلعب فيها الفكر مجالًا كبيرًا.

تنشأ من تلك المعرفة الحرف والفنون التي يقوم أصحابها باتّباع ما سلف والإضافة عليه بالتشابه أو القياس والتعميم. ويمكن اتخاذ مثل على ذلك من الطب. فقد نلاحظ علاقة بين شرب جرعة من شراب نبات معين وشفاء الجسد من سقام معين فتعم هذه المعرفة بين الناس ويتوارثونها أبًا عن جد. ولنأخذ مثلًا آخر من علم الرياضيات. فقد عرف المصريون القدماء العلاقة بين الأرقام واستطاعوا حساب المسافات وبناء الجسور والأبنية الكبيرة والأهرامات. ولكن رغم عظمة الإرث الفرعوني في مجال الهندسة المعمارية، إلا أن جل ما استطاعوا فعله هو تعميم بعض الملاحظات الرياضية العامة وتطبيقها في حالات شتّى. وهذه هي معرفة صحيحة وعلمية ولكنها في نظر أرسطو لا تزال معرفة تجريبية ولم تبلغ مرحلة العلم النظري أو التجريدي.

المعرفة الفلسفية هي معرفة العلل أو الأسباب والمبادئ الأولى. فالتجربة أعلى من المعرفة الحسّية البحتة، والفن أعلى من التجربة والعلوم النظرية أعلى من العلوم العملية لأن العلم بالعلة وبما هو كلي أعلى من العلم بالواقع والمحسوس فقط. كما أن العلم بالعلل أقوى على تعليم الآخرين وينبع ليس من المنفعة بل من التعجب الذي يدفع الناس للتخلص من الجهل.

مكتبة الفكر الجديد

تهدف الفلسفة إلى معرفة الوجود. الوجود بما هو موجود أي كل الموجودات ولا نستثني منها شيئًا: الوجود وكل محمولاته أو كاتيغورياته. أما العلوم الأخرى فتختص بمعرفة أشياء معينة من الوجود وتبحث في محمولات أو أوصاف ذلك الجزء. ولما كانت الفلسفة تطلب المبادئ الأولى فهي تطلبها لكل الوجود وليس فقط لموضوع معين أو جزء معين من الوجود. فالطبيب يبحث في الصحة وأسبابها وعللها الأولى أما الفيلسوف فيبحث في علل كل الموجودات: الطبيعية والإلهية. وبالتالي يبحث الفيلسوف في وجود الله الموجود الأول وعلة الموجودات الكائنة. وبالتالي تكون الفلسفة أو الجزء الفلسفي الذي يبحث في وجود الله أسماها على الرغم من أنه أبعدها عن الواقع والموجودات الحسّية. وتسمى الفلسفة هذه الحكمة لأنها تنظر في أسمى الأشياء إطلاقًا.

الموجود الأول، الله، العلة الأولى First Cause

يعتبر أرسطو أن من المسلَّم به وجود الموجودات، وهي متحركة وبالتالي لا بد من وجود محرك يحرّكها ويكون مسؤولًا عن حركتها وهو لا يتحرك. وإن كان متحركا، فلا بد من محرّك يحركه، يكون غير متحرك أو متحركًا، وإذا كان متحركًا، فلا بد أن يكون له محرّك يحركه، ويكون لهذا المحرّك محرّك يحرّكه وهلّم جرًا. وهكذا تنتج سلسلة غير متناهية من المحركات، ولكن لا يجوز أن تكون السلسلة غير متناهية، لأنه لا يعود بالإمكان تقديم تفسير عن وجود الحركة في العالم أصلًا. وبما أن الحركة موجودة، فلا بد أن يكون لها محرّك غير خاضع للحركة لا يتحرك، وهو الله، لأن العقل يرفض التسليم بوجود حركة من دون محرّك لها.

القوة والفعل Potentiality and Actuality

يميّز أرسطو بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل. فالموجود بالفعل الآن لا بد أن يكون في وقت ما موجودًا بالقوة، ولا يقبل العقل افتراض موجود بالفعل لم يكن موجودًا بالقوة. ويحتاج الموجود بالقوة إلى موجود

مكتبة الفكر الجديد

بالفعل قد يخرجه من القوة إلى الفعل. وهكذا تكون الحركة حركة بالقوة إلى أن يجعلها الله حركة بالفعل. والله موجود بالفعل أبدًا، لأن لو افترضنا عكس ذلك لنتجت عن ذلك سلسلة غير متناهية كما أسلفنا في الفقرة السابقة. ونذكر مثالًا على الموجود بالقوة الولد. فالولد أب بالقوة ولا يصبح أبًا بالفعل إلا بعد بلوغه وزواجه، وكذلك البزرة هي شجرة بالقوة ولا تصبح شجرة بالفعل إلا بعد تهيئة البيئة الصالحة لنموها.

خلاصة

لقد بحثنا في هذا الفصل أسلوب أرسطو الفلسفي الجديد ونظرته إلى الفلسفة وذكرنا تقسيمه للعلوم وأهم الكتب التي ألفها وبحثنا المقولات الأساسية في علم المنطق وتحدثنا عن أهم المواضيع التي بحثها في كتاب الميتافيزيقا.

مكتبة الفكر الجديد